وحي القلم

للدكتور عبد الوهاب عزام

أنا مُعْجَبٌ بالرافعي منذ قرأتُ له ، وأحذر أن يغطيَ الإعجابُ على بصري ، وتكلَّ عينُ الرضا عن العيوب ، وقد اتَّهمتُ نفسي ، ولتكافئ التهمةُ الإعجاب ، ويعادل الحبُّ الارتياب .

الرافعيُّ نسيجُ وحده ؛ تقرأ له فتشعر أنك في اختراعه ، وتصويره ، وبيانه ، وتفكيره ، لا يذكِّرُك بأحدٍ ، ولا يذكِّرك به أحدٌ . وحَسْبُ الكاتب أن يكونَ كوناً مستقلاً يستملي الضمير ، ويُبدع في التصوير ، وكثيرٌ من الكُتَّاب قوالبُ تختلفُ أحجامها وأشكالها ، ولكنها صورٌ مستعارة ، لا تفتأ تستعيرُ مادة عملها .

بين شُعراء الفرس شاعر تَسمَّى « خلاَّق المعاني » ؛ والرافعيّ في « وحي القلم » جديرٌ بهذا اللقب . وما أعسر الخَلْق هنا ! وما أصعبَ الإبداع ! يعمدُ إلى الحَدَث الصَّغير ذي المعنى المحدود ، فيحطم حدوده ، ويصله بالبشرية كلها ، أو يُشيعه في العالم كُلِّه ، ويُصوِّره صُوراً تلقى القارئ بجدَّتها ، وروعتها .

والكاتب الملهم يرى الخليقةَ أسباباً متصلة ، ومعاني متجاوبة ، وصُوراً متجاذبة ، فما يبصر ذَرَّةً إلا رأى وراءها الفلك ، ولا يمسك شُعاعاً إلا جذبه إلى الشَّمس ، وكأن كلَّ شيء في الوجود عينٌ تطلُّ على العالم غير المحدود . تنثالُ عليه الفِكَر ، وتتزاحم أمامه الصُّور ، فيكون همه أن يشقَّ طريقَه بين المعاني المتزاحمة ، ويحدَّ سبيلَه بين الطرق المتشعِّبة ، وأن يطردَ المعاني التي لا يريدها عن المعاني التي يقصدها . فهو من الخصب في نصب ، نصب الكاتب المقلِّد من الإجداب والأجبال .

العالمُ أمام الرافعيِّ كتابٌ مفتوح ، يدركُ فيه جمالَ الحروف ، وحُسْنَ السطور ، ثم ينفذُ إلى ما لا ينتهي من المعاني . وما يزال يعرضُ المعنى الواحد في صُور رائعةٍ حتى يدع القارئَ مُعْجَباً حَيْرانَ ، قد اجتمعتْ على القراءة خَفَقاتُ قلبه ، ونَظَرات عينه ، وأساريرُ وجهه . فلو أنَّ الرافعيَّ صَوَّر هذه الخفقات ، وبَيَّنَ

هذه النظرات والقَسمات ؛ لاستردَّ البيانَ الذي أفاضه على قارئه .

والرافعيُّ يُغْرِب أحياناً ، أو يدقُّ فينبهم معناه . وفي هذا ثورةُ بعض الأدباء عليه ، ولكن الذي آمن بقدرته فيما وضح ، واستبان من كلامه يؤمنُ أنه حين يغمضُ يتحيل لمعنى دقيق خفيّ لم تَرُضْه الألفاظ ، ولم يذلِّله الكُتَّابُ ، أو يتلطَّف لفكرٍ نفورٍ آبدٍ ليختله .

وكثيراً ما يُخيَّل إليَّ وأنا أقرأ آبدات الرافعي أني أُتبع بصري طائراً يرتفعُ في اللَّوح ، ثم يرتفع حتى تُضمره السُّحب ؛ فلا تراهُ العينُ ، ولكنها تعرفُ أنه في جَوِّ السماء . فإن قيل : إنَّ هذا حُكْم الإعجاب والرضا ، قلت : فإني أتَّهم نفسي ، فلا أدفعُ عن هذه الأوابد . ولكن « وحي القلم » بريء من الغموض والانبهام ، وإنما أكتبُ اليوم عن « وحي القلم » .

وهذا الكاتبُ النابغة نزَّاعٌ إلى الجمال ، طَمَّاحٌ إلى الفضيلة ، مُولَعٌ بكلِّ خلق كريم ، فلا يعالج أمراً إلا حَلَّق به إلى الجمال ، والرأفة ، والرحمة ، والإحسان ، والحرية ، والإقدام ، وهَلُمَّ جَرًّا .

وقلبه فَيَّاضٌ بالإيمان والطهر ، فإذا كتب في الدِّيْن وما يتَّصلُ به ؛ ارتقى إلى حيث تنقطعُ المطامع . اقرأ مقالة : « سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم » ؛ إنها تملأ القارىءَ إعجاباً ، وتسمو به حتى يحسبَ نفسُه ملكاً محلِّقاً ، يرى مآتمَ الناس ومصائبهم من حيث لا تتعلَّق به ، ولا تستهويه ؛ ولا يوفَّق لهذا البيان إلا مسلم مُلْهَم كالرافعي ، يكتبُ في حقيقة عُلْوية كالنفس المحمدية .

ثم اقرأ في مقالة : « الله أكبر » وَصْفَ المسجد ، ونشيد الملائكة ؛ لقد قرأتُ فكانت تنبعث التكبيرةُ من قَرارة نفسي ، فأمسكها مُؤْثِراً الاستماعَ إلى هذا التكبير ؛ الذي يُدَوِّي به المسجد ؛ فلما انتهى المقالُ لم أملك أن رفعتُ صوتي بآخر كلمة منه « الله أكبر » .

هذه النزعاتُ العلوية ، والسُّمو الروحيُّ يتجلى في مقالاته : الإشراق الإلهي ، فلسفة الإسلام ، حقيقة المسلم ، وحي الهجرة ، فوق الآدمية ، درس من النبوة ، شهر للثورة ، ثبات الأخلاق .

الرافعيُّ كاتبُ الإسلام والعربية ، يتناول الحديث الصغير في تاريخ الإسلام ومآثر العرب ، فيجعله عنوانَ فصل بليغ من الحكمة والموعظة ، يسايره فيه القارئ

مُتعجّباً : كيف ولدت الواقعةُ الصَّغيرةُ هذه المعاني ؛ التي تحاول أن تكونَ تاريخ جيل ؟ . اقرأ : « زوجة إمام » و« السمكة » . واقرأ : « يا شباب العرب » و« يا أيها المسلمون » .

وهذا الكاتبُ السَّماويُّ أبرعُ الناس تحليقاً بالحبِّ الطاهر ، وأعظمهم ترفُّعاً به ، وأبصرهم بالمهاوي والمهالك التي يُحلِّق عنها هذا الحبُّ العليُّ الأبيُّ . نظرةٌ إلى السماء تصفُ العلاء ، والمضاء ، والطهر ، والسُّمو الروحي الذي لا يُحَدُّ ، ونظرةٌ إلى الأرض تصفُ السقوط الحيواني ، والهوِيّ الشيطاني ؛ فترى القارئ مدعوّاً إلى السماء ، مطروداً عن الأرض ، طائراً إلى الخير ، نافراً عن الشر .

وإذا وَصَفَ صاحبنا الجمالَ ، بثَّ في العالم معانيه ، ونَفَضَ عليه ألوانه ، فكأنما خُلِق العالمُ خَلْقاً جديداً . يخلقُ من الشعاع شمساً ، ومن القطرة نهراً ، ومن الوردة حديقة ؛ ثم يغردُ فلا يُدرى أهذا التغريدُ تفسير هذا الجمال ، أم هذا الجمالُ تصوير هذا التغريد ؟! ولا يدري القارئ أهو في ربيعٍ باهر ، أم في بيانٍ ساحر ؟!

وما أشبه قلمه وهو يُشَقِّق المنظر الغُفْل عن سرائر الجمال بإبرة الحاكية ، تسلط على الصَّفحة الجامدة السَّوداء فتردّها كلاماً ، وأنغاماً ، وألحاناً ؛ واقرأ « عرش الورد » تَرَ كيف جعل ابنته في عَرْشها مركزاً يحيطُ بها الجمال فلكاً دائراً .

ولله مصطفى حين يتغلغلُ في الجماعات ، فيحسّ آلامها ، ويصف أسقامها ، ويُعْرِب عما في ضمائر البائسين ، وعما في رؤوس المتكبرين ؛ ولا يزالُ بالمعنى الذي يراه الناسُ جماداً ، يقدحه حتى يخرج منه النار والنور .

ويأخذ الحادثةَ الصَّغيرةَ يُنْطِقها بما وراءها ، ويكشفها عما انطوتْ عليه حتى يقيم بها للإنسانية عُرْساً أو مأتماً . اقرأْ « أحلام الشارع » تسمعْ أنات البشرية ، وتَرَ عبراتها ، وتلمس مصائبها مُصَوَّرة مُلَوَّنة بدم المهج ، وماء العيون ، ونار الزَّفرات ، وحَزّ الحسرات ، وسواد الفاقة والذلة ؛ ثم تسمع لعنة الإنسانية على لسان ما خلفت الإنسانية من قوانين .

والعجب أنك كلما أسال الحزنُ عبراتك طبع البيانُ الساحرُ على شفتيك بسمةَ إعجابٍ لا تملك نفيها . واقرأ « عربة اللقطاء » تَرَ أنه صاغ من أساريرهم حروفاً للهجاء تسع كلَّ معنى ، وتتمثل الآثام التي ولدت هؤلاء ، والمصائب التي يحملها هؤلاء ، والمفاسد التي سيلدها هؤلاء .

وتقرأ « لحوم البحر » فتستمع إلى الشيطان والملك ، كلٌّ ينشد أناشيده . ويستخرجُ الرافعي منها دعوةً إلى الفضيلة ، ولعنةً للرذيلة ، وهو قادرٌ على تسخير الشيطان لبيانه ، فقد أُعْطي في البيان مُلْكَ سليمان .

وإذا وَعَظ مصطفى الصَّادق نفذ إلى السَّرائر ، وصَوَّر للإنسان فضائله ورذائله تصويراً لا يدعُ له أن يختارَ إلا الأولى ، وأن يهجر إلا الثانية .

وهو لا يعمدُ إلى النُّذُر يصبُّها على النفس صَبَّ السياط ، يألم لها الجسم ، ويموت القلب ، بل يعمدُ إلى الحياة يُصَوِّرها هنا على حقائقها نافياً عنها تلبيس إبليس ، وإلى القلب ينفخُ فيه العظمة ، ويبثُّ فيه الفضيلة والطهارة والطموح إلى كلِّ خير ، والنُّفور من كلِّ شر .

وهذه المقاصدُ الجليلة ، والنَّزعات السَّامية ، تخالطها دعابة دقيقة ، وسُخْرية نافذة ؛ ترى الكاتب يرتفع فوق العالم ، ثم يسخر مما عبَّد الناسَ من أباطيل وأهواء ، فإذا التماثيل التي يَسْجُدون لها تهاويل ، وإذا الهولُ الذي يفزعون منه تهويل ، وإذا العظمة ، والكبرياء ، والسُّلطان ، والجاه ، والغنى ، وكل ما عدَّه الاجتماع عظمة لقوم ، وحقارة لآخرين أضاحيك يخلقها الجهل ، ويهدمها العقل ، ويقدِّسها الإنسانُ حيواناً ، ويحطمها الإنسان إنساناً .

وأعوذ بالله من الرافعي إذا انطلق ساخراً يرسلُ بيانه طعنات دراكاً ، وهو يضحكُ ضحك البرق في السَّحاب الراعد ، أو لمع السَّيف في يد الضَّارب .

* * *

وبَعْدُ ، فهذا وَصْفُ الروض في كلمات لو كانت أزهاراً ما مثلته ، ونعت البحر في سطور لو كانت أمواجاً ما صوَّرته .

فأما الروضُ في بهجة جماله ، والبحر في روعة جلاله ، فهما ما خطه الرافعيُّ . فإن شئتَ فَقُلْ جنات في صفحات ، وعُباب في كتاب ؛ وإن شئت فقلْ : إنه العالمُ في سطورٍ قد انتظم ، ووحي إلَهي سَمَّاه الرافعي « وحي القلم » . ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء : ٧٠] .

* * *